

## سورة الفتح

هي مدنية ، وعدة آياتها تسع وعشرون ، نزلت بعد سورة الجمعة .  
ووجه مناسبتها لما قبلها :

- (١) إن الفتح المراد به النصر مرتب على القتال .
- (٢) إن في كل منهما ذكراً للؤمنين المخلصين والمنافقين والمشركون .
- (٣) إن في السورة السالفة أمراً بالاستغفار ، وفي هذه ذكر وقوع الغفرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ  
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ  
اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا (٣)

## شرح المفردات

أصل الفتح : إزالة الأغلاق ، وفتح البلد : دخله عنوة أو صلحا ، والمراد بالفتح هنا صلح الحديبية ( والحديبية بئر ) على المشهور ، وهو المروي عن ابن عباس وأنس والشعبي والزهري ، وسمى هذا فتحا ؛ لأنه كان سببا لفتح مكة ، قال الزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير كثير بهم سواد الإسلام ، فامضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة في عشرة آلاف ففتحوها .  
والخلاصة — إنه كان من نتائج هذا الصلح الأمور الآتية :

- (١) تمّ في هذا الصلح ما يسمونه في العصر الحديث (جسّ النبض) لمعرفة قوة العدو ومقدار كفايته وإلى أي حد هي .
- (٢) معرفة صادق الإيمان من المنافقين كما علم ذلك من الخلفين فيما يأتي .
- (٣) إن اختلاط المسلمين بالمشركين حجب الإسلام إلى قلوب كثير منهم فدخلوا في دين الله أفواجا .
- مبيناً : أي بيناً ظاهر الأمر مكشوف الحال .

### المعنى الجملي

نزلت هذه السورة الكريمة حين منصرفه صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذى القعدة من سنة ست من الهجرة ، لما صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام وحالوا بينه وبين قضاء عمرته ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكرّره من جماعة من الصحابة كعمر بن الخطاب رضی الله عنه ، فلما نجر هديه حيث أُحصِرَ ورجع أنزل الله تعالى هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل هذا الصلح فتحاً لما فيه من المصلحة ، ولما آل إليه أمره ؛ فقد روى عن ابن مسعود رضی الله عنه أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعدّ الفتح صلح الحديبية . وروى البخاري « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلاً ، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر : ثكلتك أمك يا عمر ، كررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، كل ذلك لا يجيبك ، قال عمر : فحركت بعيري حتى تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في قرآن ، فإلبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي ، فقلت لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن . فبحث رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه فقال : لقد أنزلت عليّ سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا » .

وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: لما نزلت « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً — إلى قوله فَوْزاً عَظِيماً » مرجعه من الحديدية وهم يخالطهم الحزن والكآبة وقد نحروا الهدى بالحديدية ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد أنزلت على آية هي أحب إلي من الدنيا جميعها .

هذا ، ولما كان لكل عامل ثمرة يجنيها من عمله وغاية يبتغيها منه — كان للنبوة نهاية مطلوبة في هذه الحياة وثمرتها تتبع هذه النهاية ، فنهاية أمر النبوة أن تلتئم الأمور ويجتمع شملها ، وتكمل نظمها التي تبنى عليها الحياة المهنية حتى يعيش العالم في طمأنينة وهدوء ، ولن يتم ذلك إلا بعد بث الدعوة والجهاد العامى والعملى بقتال الأعداء وخضد شوكتهم ، ومتى تم هذا وأتقد المستضعفون ودخل الناس في دين الله أفواجا كرها ثم طوعا انتظم أمر النبوة ، وأدى الرسول واجبه واستوجب أن يجنى ثمرة أعماله ، وهي :

(١) مغفرة ما فرط من ذنبه مما يعدّ ذنباً بالنظر إلى مقامه الشريف .

(٢) تمام النعمة باجتماع الملك والنبوة بعد أن كانت له النبوة وحدها .

(٣) الهداية إلى الصراط المستقيم في تبليغ الرسالة ، وإقامة مراسم الرياسة .

(٤) المنمة والعزة ونفاذ الكلمة ورهبة الجانب وحى الزمار .

فهذا الفتح كان كفيلاً بهذه الشئون الأربعة ، فكانه سبحانه يقول لرسوله :

لقد بلغت الرسالة ، ونصبت في العمل ، وجاهدت بلسانك وسيفك ، وجمعت الرجال والكرأع والسلاح ، وتلظفت وأغلظت ، وأخلصت في عملك ، وفعلت في وجيز الزمن ما لم ينله مثلك في طويله ، حتى تم ما ندينك له فلتجن ثمار عملك ، ولتقر عيننا بما آل إليه أمرك في الدنيا والآخرة .

## الإيضاح

( إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ) أى إنا فتحنا لك فتحاً ظاهراً لا يحتاج فيه شك

بذلك الصاح الذى تم على يدك في الحديدية ، ولم يمض إلا القليل من الزمن حتى

دخل الناس في دين الله أفواجا ، وكان هو السلم الذي رقيت فيه إلى فتح مكة ،  
وتسابق العرب إلى الدخول في الدين زرافات ووحدانا .

( ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ) أي ليغفر لك ربك جميع ما فرط  
منك من الهفوات مما يصح أن يسمى ذنباً بالنظر إلى مقامك الشريف ، وإن كان  
لا يسمى ذنباً بالنظر إلى سواك ، ومن ثم قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين .  
والمراد غفران الذنوب التي قبل الرسالة والتي بعدها ، قاله مجاهد وسفيان الثوري  
وابن جرير والواحدى وغيرهم .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن المغيرة بن شعبه قال : « كان النبي صلى الله  
عليه وسلم يصلي حتى ترم قدماه ، فقيل له : أليس قد غفر لك الله ماتقدم من ذنبك  
وما تأخر ، قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة — قلت  
لم يجعله علة للمغفرة ، ولكنه جعله علة لاجتماع ماعدد من الأمور الأربعة ، وهي المغفرة  
وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسرنالك فتح مكة  
ونصرتك على عدوك ، لنجمع لك بين عز الدارين ، وأغراض الآجل والعاجل اه .  
( ويتم نعمته عليك ) بإعلاء شأن دينك ، وانتشاره في البلاد ، ورفع ذكرك  
في الدنيا والآخرة .

( ويهديك صراطاً مستقيماً ) أي ويرشدك طريقاً من الدين لا اعوجاج فيه ،  
يستقيم بك إلى رضا ربك .

( وينصرك الله نصراً عزيزاً ) أي وينصرك على من ناوأك من أعدائك نصراً  
ذا عز بالغ ، لا يدفمه دافع ، لما يؤيدك به من بأس ، ويديلك من ظفر .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ  
 إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ  
 الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ  
 عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ  
 وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ  
 دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ  
 مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧).

### شرح المفردات

أنزل السكينة : أى خلقها وأوجدها ، قال الراغب : إنزال الله تعالى نعمته على  
 عبد : إعطاؤه إياها ، إما بإنزال الشيء نفسه كالإنزال القرآن ، أو بإنزال أسبابه بالهداية  
 إليه كالإنزال الحديد ومحوه اه . والسكينة : الطمأنينة والثبات من السكون ، إيماناً مع  
 إيمانهم : أى يقينا مع يقينهم ، جنود السموات والأرض : أى الأسباب السماوية  
 والأرضية ، ويكفر عنهم سيئاتهم : أى يغطيها ولا يظهرها ، والسوء : (بالضم والفتح) :  
 المساء ، وظن السوء : أى ظن الأمر السوء فيقولون فى أنفسهم : لا ينصر الله رسوله  
 والمؤمنين ، عليهم دائرة السوء : الدائرة فى الأصل الحادثة التى تحيط بمن وقعت  
 عليه ، وكثر استعمالها فى المكروه ، والسوء : العذاب والهزيمة والشر ( وهو بالضم  
 والفتح لغتان) وقال سيبويه : السوء هنا الفساد ، أى عليهم ما يظنونونه و يتر بصونه بالمؤمنين  
 لا يتخطاهم ، امنهم : أى طردهم طرداً نزلوا به إلى الحضيض ، عزيزاً : أى يقلب  
 ولا يقبل .

## المعنى الجملى

بعد أن أخبر سبحانه بأنه سينصر رسله — بين سبيل النصر بأنه رزقهم ثبات قلب ليزدادوا يقينا إلى يقينهم ، ثم أخبر بأن من سنه أن يسلط بعض عباده على بعض ، وهو العليم بالمصالح واستعداد النفوس ، وقد وعد المؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأوعده عباده الكافرين والمنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمؤمنين — بالعذاب الأليم ، وغضب عليهم وطردهم من رحمته .

روى أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم « لِيَقْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » مرجعه من الحديدية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على وجه الأرض » ثم قرأها عليهم ، فقالوا هنيئا مرثيا يارسول الله ، لقد بين لك ماذا يفعل بك ، فإذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه « لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ — حتى بلغ — فَوَزًّا عَظِيمًا » وأخرجه الشيخان من رواية قتادة .

## الإيضاح

( هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ) أى هو الذى أنزل فى قلوب المؤمنين طمأنينة وثبات أقدام عند اللقاء ومقاتلة الأعداء ( وهو المسمى فى العصر الحديث الروح المعنوية فى الجيوش ) ليزدادوا يقينا فى دينهم إلى يقينهم برسوخ عقيدتهم واطمئنان نفوسهم بعد أن دهمهم من الحوادث ما من شأنه أن يزعج ذوى الأحلام ، ويزلزل العقائد بصد الكفار لهم عن المسجد الحرام ورجوعهم دون بلوغ مقصدهم ، ولكن لم يرجع أحد منهم عن الإيمان بعد أن هاج الناس وزلزلوا زلزالا شديدا حتى إن عمر بن الخطاب لم يكن راضيا عن هذا الصلح

وقال : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ وكان للصديق من القدم الثابتة ورسوخ الإيمان ما دل على أنه لا يجارى ولا يبارى .

(ولله جنود السموات والأرض) فهو الذى يدبر أمر العالم ويسلط بعض جنده على بعض فيجعل جماعة، يجاهدون لإعلاء كلمة الحق ، ويجعل آخرين يقاتلون في سبيل الشيطان ، ولو شاء لأرسل عليهم جندا من السماء فأباد خضراءهم ، لكنه سبحانه شرع الجهاد والقتال لما فى ذلك من مصلحة هو عليم بها وحكمة قد تغيب عنا ، وهذا ما عناه بقوله : (وكان الله عليهما حكيمًا) فهو لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض

(ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وليكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما) أى وإنما دبر ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله ويشكروها فيدخلوا الجنة ما كثين فيها أبدا ، وليكفر عنهم سيئات أعمالهم بالحسنات التى يعملونها ، شكراً لربهم على ما أنعم به عليهم ، وكان ذلك ظفراً لهم بما كانوا يرجون ويسعون له ، ونجاة مما كانوا يحذرونه من العذاب الأليم ، وهذا ينتهى ما يرون من منفعة مجلوبة ، ومضرة مدفوعة .

(ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء) أى وليعذب هؤلاء فى الدنيا بإيصال الهمم والغم إليهم بسبب علو كلمة المسلمين ، وبما يشاهدونه من ظهور الإسلام وهجر المخالفين ، وبتسليط النبى صلى الله عليه وسلم عليهم قتلاً وأسراً واسترقاقاً ، وفى الآخرة بعذاب جهنم .

وهم قد كانوا يظنون أن النبى صلى الله عليه وسلم سيُعذب ، وأن كلمة الكفر ستعلو كلمة الإسلام ، ومما ظنوه ما حكاها الله بقوله : « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » .

وإنما قدم المنافقين على المشركين ، لأنهم كانوا أشد ضرراً على المؤمنين من الكفار المجاهرين ، لأن المؤمن كان يتوقى المظاهر ويخالط المنافق لظنه إيمانه ،

وكان يفشى سره إليه ، وفي هذا دلالة على أنهم أشد منهم عذاباً وأحق منهم بما أوعدهم الله به .

والخلاصة — إن الفريقين ظنوا أن الله لا ينصر رسوله ولا المؤمنين على الكافرين . وقد دعا سبحانه عليهم بأن ينزل بهم ما كانوا يظنونونه بالمؤمنين من الدوائر وأحداث الزمان فقال :

(عليهم دائرة السوء) أي عليهم تدور الدوائر ، وسيحقيق بهم ما كانوا يترقبونه بالمؤمنين من قتل وسبي وأسر لا يتخطاهم .

ثم بين ما يستحقونه من الغضب واللعنة فقال :

(وغضب الله عليهم وانهمم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) أي ونالهم غضب من الله وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ، وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ، وساءت منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات .

(ولله جنود السموات والأرض) من الملائكة والإنس والجن والصيحة والرجفة والحجارة والزلازل والخسف والفرق ونحو ذلك — أنصاراً على أعدائه إن أمرهم بإهلاكهم وأهلكوهم وسارعوا مطيعين لذلك .

وقائدة إعادة هذه الجملة — بيان أن الله جنوداً للرحمة وجنوداً للعذاب ، فذكرهم أولاً بيانا لإزاهم للرحمة ، وأنهم يدخلون الجنة مكرمين معظمين ، وذكرهم ثانياً بيانا لإزاهم العذاب على الكافرين في نار جهنم كما قال : «عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ» .

روى أنه لما جرى صلح الحديبية قال ابن أبي : أئظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو ، فأين فارس والروم — فبين سبحانه أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم .

(وكان الله عزيزاً حكيماً) أى وكان الله غالباً فلا يرد بأسه ، حكماً فيما  
دبره خلقه .

### خلاصة ما سلف

إنه قد ترتب على هذا الفتح أمور أربعة للنبي صلى الله عليه وسلم :

- (١) مغفرة الذنوب .
- (٢) اجتماع الملك والنبوة .
- (٣) الهداية إلى الصراط المستقيم .
- (٤) العزة والمنعة .

وهكذا فاز المؤمنون بأمر أربعة :

- (١) الطمأنينة والوقار .
- (٢) ازدياد الإيمان .
- (٣) دخول الجنات .
- (٤) تكفير السيئات .

وجازى الكفار بأمر أربعة :

- (١) العذاب .
- (٢) الغضب .
- (٣) اللعنة .
- (٤) دخول جهنم .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ  
وَيُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ  
إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى  
نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)

## شرح المفردات

شاهداً: أى على أمتك لقوله تعالى: « وَيَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ »  
 ومبشراً: أى بالثواب على الطاعة، ونذيراً: أى بالمذاب على المعصية، وتعرضه:  
 أى تنصروه، وتوقروه: أى تعظموه، بكرة: أى أول النهار، وأصيلاً: أى آخر  
 النهار، والمراد جميع النهار، إذ من سنن العرب أن يذكروا طرفى الشيء ويريدوا  
 جميعه؛ كما يقال شرقاً وغرباً لجميع الدنيا، يبايعونك: أى يوم الحديبية إذ بايعوه على  
 الموت فى نصرته والذب عنه كما روى عن سلمة بن الأكوع وغيره، أو على ألا يفروا  
 من فريش كما روى عن ابن عمر وجابر، إنما يبايعون الله، لأن المقصود من بيعة  
 الرسول وطاعته طاعة الله وامتنال أوامره، يد الله فوق أيديهم: أى نصرته إياهم أعلى  
 وأقوى من نصرتهم إياه؛ كما يقال اليد لفلان: أى الغلبة والنصرة له، نكث: أى  
 نقض، يقال أوفى بالعهد ووفى به: إذا أتمه، وقرأ الجمهور (عليه) بكسر الهاء،  
 وضمها حفص لأنها هاء هو وهى مضمومة فاستصحب ذلك كما فى له وضمه به .

## المعنى الجملى

بعد أن أتم الكلام على مالكل من النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من  
 الثمرات التى ترتبت على عمله — أعقبه بما يعمها معا، فذكر أنه أرسل رسوله شاهداً  
 على أمته، ومبشراً لها بالثواب، ومنذراً إياها بالعقاب، ثم أبان أن فائدة هذا  
 الإرسال هو الإيمان بالله وتعظيمه وتسبيحه غدوة وعشيا ونصرة دينه، ثم ذكر بيعة  
 الحديبية (قرية صغيرة على أقل من مرحلة من مكة، سميت باسم بئر هناك) وأن  
 الذين بايعوا هذه البيعة إنما بايعوا الله ونصروا دينه، وأن من نقض منهم العهد فوبال  
 ذلك عائد إليه ولا يضرن إلا نفسه، ومن أوفى بهذا العهد فسينال الأجر العظيم،  
 والثواب الجزيل .

## بيعة الرضوان — بيعة الشجرة

سبب هذه البيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا خراش بن أمية الخزاعي حين نزل الخديبية ، فبعثه إلى قريش بمكة ليبلغ أشرافهم عنه ماجاء له ، فمقرؤوا جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتله ، فمنعه الأحابيش ( واحدم أحبوش ، وهو الفوج من قبائل شتى ) نخلوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبيعته ، فقال إني أخافهم على نفسى لما أعرف من عداوتى إليهم وما بمكة عدوى ( قبيلته بنو عدى ) ولكنى أدلك على رجل هو أعز بها منى وأحب إليهم — عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته ، فلقية أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة فجعله فى جواره حتى فرغ من رسالته لعظماء قريش ، ثم احتبسوه عندهم ، فشاع بين المسلمين أن عثمان قد قتل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تبرح حتى تناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وبايعه القوم على ألا يفرّوا أبدا إلا جد بن قيس الأنصارى ، فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا داعين إلى المودعة والصلح ، وكان قد أتى رسول الله أن الذى بلغه من أمر عثمان كذب ، فتم الصلح ونشئ بعضهم إلى بعض على أن يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام القابل ويدخل مكة .

روى البخارى من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيّب : كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال خمس عشرة مائة ، والمشهور الذى رواه غير واحد أنهم كانوا أربع عشرة مائة .

## الإيضاح

(إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه  
 وتسبحوه بكرة وأصيلاً) أى إنا أرسلناك أيها الرسول شاهداً على أمتك بما أجابوك  
 فيما دعوتهم إليه مما أرسلتك به إليهم ، مبشراً لهم بالجنة إن أجابوك إلى مادعوتهم  
 إليه من الدين القيم ، ونذيراً لهم عذاب الله إن تولوا وأعرضوا عما جئتهم به من عنده ،  
 فأمنوا بالله ورسوله وانصروا دينه وعظموه وسبحوه في العدو والعشى .

(إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) أصل البيعة العقد الذي يعقده الإنسان  
 على نفسه من بذل الطاعة للإمام والوفاء بالعهد الذي التزمه له ، والمراد بها هنا بيعة  
 الرضوان بالحديبية ، وقد بايعه جماعة من الصحابة على ألا يفروا ، منهم معقل  
 ابن يسار ، أى إن الذين يبايعونك بالحديبية من أصحابك على ألا يفروا عند لقاء  
 العدو ، ولا يولوهم الأديار ، إنما يبايعون الله ببيعتهم إليك ، وقد ضمن لهم الجنة بوفائهم  
 له بذلك .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(بئذ الله فوق أيديهم) أى نعمة الله عليهم بالهداية فوق ما صنعوا من البيعة  
 كما قال تعالى : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَلَّ لَأْتَمَنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ  
 يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ » .

(فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) أى فمن نقض العهد الذي عقده مع النبي  
 صلى الله عليه وسلم فإن ضرر ذلك راجع إليه ولا يضرن إلا نفسه .

(ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتیه أجراً عظيماً) أى ومن وفى بعهد البيعة  
 فله الأجر والثواب في الآخرة ، وسيدخله جنات يجد فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن  
 سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَاثَنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ  
لَنَا ، يَقُولُونَ بِالسَّتِمْهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ  
شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ  
خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ  
أَبَدًا وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢)  
وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَاللَّهُ  
مُتْلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ  
غَفُورًا رَحِيمًا (١٤) .

### شرح المفردات

المخلفون : واحد مخلف ، وهو المتروك في المكان خاف الخارجين منه ، يقولون  
بأسنتهم ما ليس في قلوبهم : أي إن كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما في القلب  
فهو كذب صراح ، والملك : إمساك بقوة وضبط ؛ تقول ملكت الشيء إذا دخل تحت  
ضبطك دخولا تاما ، ومنه لا أملك رأس بعيرى : إذا لم تستطع إمساكه إمساكا تاما ،  
والمراد بالضرر : ما يضر من هلاك الأهل والمال وضياعهما ، وبالنفع : ما ينفع من حفظ  
المال والأهل ، ينقلب : أي يرجع ، إلى أهليهم : أي عشائهم وذوى قربانهم ، بوراً :  
أي هالكين لفساد عقائدكم وسوء نياتكم ، سعيراً : أي ناراً مسعورة موقدة ملتهمية .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال المنافقين فيما سلف وبين أن الله غضب عليهم ولعنهم  
وأعد لهم عذاب السعير — أردف ذلك بذكر قبائل من العرب جهينة ومزينة

وغفار وأشجع والدليل وأسلم — تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استنفرهم عام الحديبية حين أراد السير إلى مكة معتمرا ، وساق معه الهدى ليُعلم أنه لا يريد حربا ، واعتلوا بأن أموالهم وأهلهم قد شغلتهم ، لكنهم في حقيقة أمرهم كانوا ضفاف الإيمان حائنين من مقاتلة قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة لمكة وهم الأحابيش ، وقالوا : كيف نذهب إلى قوم قد غزوه في عُقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم ؟ وقالوا : لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذا السفر ، فضضحهم الله في هذه الآية وأخبر بأنه أعدّ لهؤلاء وأشألمهم نارا موقدة تطلع على الأفتدة ، وأعدّ للمؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، وهو ذو مغفرة لمن أفلح من ذنبه ، وأناب إلى ربه .

### الإيضاح

( سيقول لك الخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ) أي أيها الرسول سيقول لك الذين تخلفوا عن صحبتك والخروج معك في سفرك حين سرت إلى مكة معتمرا زائرا بيت الله الحرام وعاقبتهم على التخلف : شغلنا عن الخروج معك معالجة أموالنا وإصلاح معاشنا وأهلونا ، إذ لم يكن لنا من يقوم بتدبير شؤونهم وقضاء حاجهم ، فاطلب لنا المغفرة من ربك ، إذ لم يكن تخلفنا عن عصيان لك ، ولا مخالفة لأمرك .

فرد الله عليهم وكذبهم بقوله :

( يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ) أي لأنهم لم يكونوا صادقين في اعتذارهم بأن الامتناع كان لهذا السبب ، لأنهم إنما تخلفوا اعتقادا منهم أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يغلبون بدليل قوله بعد : « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » .

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم حين اعتذروا بتلك الأباطيل فقال :  
 ( قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ؟ ) أى قل لهم :  
 إنكم بعملكم هذا تحترسون من الضر وتتركون أمر الله ورسوله وتقعدون طلباً  
 للسلامة ، ولكن لو أراد الله بكم ضراً لا ينفعكم قعودكم شيئاً ، أو أراد بكم نفعاً  
 فلا راد له ، إذ من ذا الذى يمنع من قضاءه ؟

وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع  
 عنهم الضر ويحلب لهم النفع .  
 ثم أبان لهم أنه عليهم بجميع نواياهم وأن ما أظروه من العذر هو غير ما أبطنوه  
 من الشك والنفاق فقال :

( بل كان الله بما تعملون خبيراً ) فيعلم أن تخلفكم لم يكن لما أظهرتم من العاذر ،  
 بل كان شكاً ونفاقاً كما فصل ذلك بقوله :

( بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزيّن ذلك  
 في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ) أى إن تخلفكم لم يكن لما أبديتم من  
 الأسباب ، بل إنكم اعتقدتم أن الرسول والمؤمنين سيقتلون وتستأصل شأقتهم  
 فلا يرجعون إلى أهلهم أبداً ، وزيّن لكم الشيطان ذلك الظن حتى قدمت عن صحبته  
 وظننتم أن الله لن ينصر محمداً وصحبه المؤمنين على أعدائهم ، بل سيُغلبون ويُقتلون ،  
 وبلغ الأمر بكم أن قلتم : إن محمداً وأصحابه أكلة رأس ( قديلو العدد ) فأين يذهبون ؟  
 وقد صرتم بما قلتم قوماً هلكي لاتصلحون لشيء من الخير ، مُستوحشين سخط الله  
 وشديد عقابه .

ثم أخبر سبحانه عما أعدّه للكافرين به فقال :

( ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعتدنا للكافرين سعيراً ) أى ومن لم يصدق  
 بما أخبر الله به ويقر بصدق ما جاء به رسوله من الحق من عنده ، فإننا أعتدنا له  
 سعيراً من النار تستعر عليه في جهنم إذا ورد لها يوم القيامة لسكفه بره .

ثم بين قدرته على ذلك وأنه يفعل ما يشاء لأرادَ لحكمه ، ولا معقب لقضائه فقال :

( والله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ) أى والله السلطان والتصرف فى السموات والأرض ، فلا يقدر أحد أن يدفعه عما أراد بكم من تعذيب على نفاقكم إن أصررتم عليه ، أو منعه من العفو عنكم إن أتمتتم من نفاقكم وكفركم .

وهذا حسَم لأطاعهم فى استغفاره صلى الله عليه وسلم لهم وهم على هذه الحال . ثم أطمعهم فى مغفرته وعفوه إن تابوا وأنبأوا إليه فقال :

( وكان الله غفورا رحيما ) أى وكان الله كثير المغفرة والرحمة ، يختص من يشاء بمغفرته ورحمته دون من عدام من الكافرين فهم بمعزل عن ذلك .

وفى الآية حث لهؤلاء المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على التوبة والمراجعة إلى أمر الله فى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وطلب المبادرة بها ، فإن الله يغفر للتائبين ويرحمهم إذا أنابوا إليه ، وأخلصوا العمل له .

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُواهَا ذُرُونَا  
تَتَّبِعْكُمْ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا ، كَذَلِكَ  
قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ  
إِلَّا قَلِيلًا (١٥)

### شرح المفردات

المراد بالمغائِم : مغام خبير ، فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديدية فى ذى الحجة من سنة خمس وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل الحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديدية

فتفتحها وغنم أموالا كثيرة خصهم بها والمراد بتبديل كلام الله الشراكة في المغنم دون أن ينصروا دين الله ويعلموا كلمته ، يفقهون : أى يفهمون والمراد بالفهم القليل فهمهم لأموار الدنيا دون أمور الدين .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه اعتذارهم عن التخلف فيما سلف بأنه إنما كان لمعالجة معاشيهم وصلاح أموالهم ، وما كان له من سبب آخر يقعدهم عن نصرته — أعقب ذلك بما يكذبهم في هذه المذرة ، فإنهم قد طلبوا السير مع النبي صلى الله عليه وسلم في وقعة خيبر لما يتوقعونه من مغنم يأخذونها ، ولو كانت التعلّة السالفة حقا ما طلبوا السير معه بحال .

ثم أخبر بأن الله سبحانه رفض طلبهم الذهاب مع رسول الله إلى خيبر ، فقالوا إن ذلك حسد من المؤمنين لهم أن ينالوا شيئا من الغنيمة ، فرد الله عليهم ما قالوا ، وأبان أنهم قوم ماديون لا يسمعون إلا للدنيا ، ولا يفهمون ما يعلى شأن الدين ويرفع قدره .

### الإيضاح

( سيقول الخلفون إذا انطلقتم إلى مغنم لتأخذوها ذرونا تتبعكم ) أى سيقول لك الذين تخلفوا عنك في عمرة الحديبية واعتلوا بشغلهم بأموالهم وأهلبيهم : دعونا تتبعكم ونسر معكم إلى غزو خيبر ، حين توقعوا ماسيكون فيها من مغنم . وفي هذا وعد للمبايعين الموافقين بالغنيمة ، وللمتخلفين المخالفين بالحرمان .

( يريدون أن يبذلوا كلام الله ) فإنه تعالى وعد أهل الحديبية بمغنم خيبر وخدمهم لا يشار إليهم فيها غيرهم من الأعراب ، فقد جاء في صحيح الأخبار « إن الله وعد

أهل الحديبية أن يعرضهم من مغام مكة مغام خير إذا قفلوا موادعين لا يصيبون شيئاً .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم إقنطاً وتيئساً من الذهاب معه إلى خير .

(قل لن تتبعونا) أى لا تأذن لهم فى الخروج معك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فإن امتناعهم عن الخروج إلى الحديبية ما حصل إلا لأنهم كانوا يتوقعون المغرم وهو جلاء العدو ومصاولته ، ولا يتوقعون المغنم ، فلما انعكست الآية فى خير طلبوا ذلك فعاقبهم الله بطردهم من المغام .

ثم أكد هذا المنع بقوله :

(كذلك قال الله من قبل) أى هكذا قال الله لنا من قبل مرجعنا من الحديبية إليكم : إن غنيمة خير لمن شهد الحديبية معنا ، ولستم ممن شهداها ، فليس لكم أن تتبعونا لأن غنيمتها لغيركم .

ثم أخبر بأنهم سيردون عليك مقالك السابق «كذلكم قال الله من قبل» فقال :

(فسيقولون بل تحسدوننا) أى إن الله ما قال ذلك من قبل ، بل أتم تحسدوننا

أن نصيب معكم مغنياً ، ومن ثم منعتونا .

فرد عليهم اتهام رسوله وصحبه بالحسد فقال :

(بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً) أى ما الأمر كما يقول هؤلاء المنافقون من

الأعراب : من أنكم تمنعونهم عن اتباعكم حسداً منكم لهم على أن يصيبوا معكم من

العدو مغنياً ، بل إنما كان لأنهم لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلاً ، ولو فقهوا ما قالوا

ذلك لرسوله وللمؤمنين ، بعد أن أخبرهم بأن الله منعمهم غنائم خير .

وفى هذا إشارة إلى أن ردهم حكم الله ، وإثبات الحسد لرسوله والمؤمنين —

ناشئ من الجهل وقلة التدبر .

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولَىٰ بِأَسِيٍّ شَدِيدِ  
تُقَاتِلُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ، فَإِنْ طُغِيَوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا، وَإِنْ تَوَلَّوْا  
كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى  
حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ  
عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)

### شرح المفردات

قال الزهري ومقاتل وجماعة: المراد بالقوم أولى البأس الشديد بنو حنيفة أصحاب  
مسيلة الكذاب، وقال قتادة: هم هوازن وغطفان، وقال ابن عباس ومجاهد: هم أهل  
فارس، وقال الحسن: هم فارس والروم، قال ابن جرير: إنه لم يبق دليل من نقل  
ولامن عقل على تعيين هؤلاء القوم، فلندع الأمر على إجماله دون حاجة إلى التعمين،  
والبأس: النجدة وشدة المراس في القتال، والحرج: الإثم والذنب.

### المعنى الجملي

بعد أن رفض سبحانه إشراك المتخلفين في قتال خير عقاباً لهم على تقاعدهم  
عن نصرته الله ورسوله في الحديبية — أردف ذلك ببيان أن باب القتال لا يزال  
مفتوحاً أمامكم، فإن شئتم أن تبرهنوا على مالكم من بلاء في ميدان القتال فاستعدوا  
فستندبون إلى مواجهة قوم أولى بأس ونجدة، فإما أن يسلموا وإما أن تبارزوهم حتى  
تبيدوا خضراءهم، ولا تبقوا منهم دياراً ولا نافع نار، فإن أجبت داعي الله أنابكم على  
ما فعلتم جزيل الأجر، وإن نكصتم على أعقابكم كما فعلتم من قبل فستجزون

العذاب الأليم ، ثم ذكر الأعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد ، ومنها ما هو لازم كالعمى والعرج ، ومنها ما هو عارض يظراً ويزول كالمرض ، ثم أعقب ذلك بالترغيب فى الجهاد والوعيد بالعذاب الأليم من مذلة فى الدنيا ، ونار موقدة فى الآخرة لمن نكل عنه وأقبل على الدنيا ، وترك ما يقرب به من ربه .

## الإيضاح

( قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ) أى قل لهؤلاء المخلفين الذين تقدم ذكرهم — إنكم ستندبون إلى قتال قوم من أولى البأس والنجدة ، فعليكم أن تخيروهم بين أمرين : إما السيف ، وإما الإسلام . وهذا حكم عام فى مشركى العرب والمتردين يجب اتباعه .

ثم وعدمه إذا أجابوا بقوله :

( فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ) أى فإن تستجيبوا وتنفروا للجهاد وتؤدوا ما طلب منكم أداؤه — يؤتكم ربكم الأجر الحسن والثواب الجزيل ، فقتلوا المغنم فى الدنيا ، وتدخلوا الجنة فى الآخرة .

كما أوعد من نكص على عقبيه بقوله :

( وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ) أى وإن تعصوا ربكم فتدبروا عن طاعته ، وتخالفوا أمره فتركوا قتال أولى النجدة والبأس إذا دعيتهم إلى قتالهم ، كما عصيتهم فى أمره إياكم بالسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة يعذبكم العذاب الأليم بالمذلة فى الدنيا والنار فى الآخرة .

ثم ذكر الأعذار المبيحة للتخلف عن القتال فقال :

( ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ) أى لا إثم على ذوى الأعذار إذا تخلفوا عن الجهاد وشهود الحرب مع المؤمنين إذا هم لقوا عدوهم للعلل التى بهم ، والأسباب التى تمنعهم من شهودها كالعمى والعرج والمريض .

روى أنه لما نزل قوله « وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ » الآية . قال أهل الزمارة :  
 كيف بنا يا رسول الله ؟ فأنزل الله : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ » الآية .  
 وقال مقاتل : عذر الله أهل الزمارة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية  
 بهذه الآية .

ثم رغب سبحانه في الجهاد وطاعة الله ورسوله ، وأوعد على تركه بقوله :  
 (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، ومن يتولّ يعذبه  
 عذاباً أليماً) أى ومن يطع الله ورسوله فيجيب الداعى إلى حرب أعدائه أهل الشرك  
 دفاعاً عن دينه وإعلاء لكلمته — يدخله يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار،  
 ومن يعص الله ورسوله فيتخلف عن القتال إذا دعى إليه — يعذبه عذاباً موجماً  
 فى نار جهنم :

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي  
 قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغْنَمٍ كَثِيرَةً  
 يَأْخُذُونَهَا، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)

### شرح المفردات

الرضا : ما يقابل السخط ، يقال رضى عنه ورضى به ورضيته ، والمراد بالمؤمنين  
 أهل الحديبية ، ورضاه عنهم لمبايعتهم رسوله صلى الله عليه وسلم ، والشجرة : سمرة  
 (شجرة طلح — وهى المعروفة الآن بالسنت) بايع المؤمنون تحت ظلها رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم ، ما فى قلوبهم : أى من الصدق والإخلاص فى المبايعه ، والسكينة :  
 الطمأنينة والأمن وسكون النفس ، فتحاً قريباً : هو فتح خيبر عقب انصرافهم من

الحديبية كما علمت ، مغانم كثيرة : هى مغانم خيبر وكانت خيبر أرضا ذات عقار وأموال قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المقاتلة فأعطى الفارس سهمين والراجل سهما ، عزيزاً : أى غالباً ، حكماً : أى يفعل على مقتضى الحكمة فى تدبير خلقه .

### المعنى الجملى

بعد أن بين حال المخلفين فيما سلف — عاد إلى بيان حال المبايعين الذين ذكروهم فيما تقدم بقوله : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » فأبان رضاهم عنه لأجل تلك البيعة ، لما علم من صدق إيمانهم ، وإخلاصهم فى بيعتهم ، وأنزل عليهم طمأنينة ورباطة جأش وجازاهم بمغانم كثيرة أخذوها من خيبر بعد عودتهم من الحديبية ، وكان الله عزيزاً : أى غالباً على أمره ، موجداً أفعاله وأقواله على مقتضى الحكمة .

عن سلمة بن الأكوع قال : « بينما نحن قائلون ، إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أيها الناس : البيعة البيعة ، نزل روح القدس ، فقرأنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قوله تعالى : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ » الآية . فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس : هنيئاً لأبن عفان ، يطوف بالبيت ونحن هنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف » أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه .

وأخرج البخارى عن سلمة أيضاً قال : « بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، قيل على أى شىء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت » . وعن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » . أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى .

## الإيضاح

(لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة بيعة الرضوان ، وقد عرفت أنهم كانوا أربع عشرة مائة ، كما عرفت أسباب هذه البيعة .

ولما أراد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلموا هذه الشجرة بعد ذلك أكثر اختلافهم فيها ، فلما اشتبهت عليهم وصار كل واحد يشير إلى شجرة غير التي يشير إليها الآخر، قال عمر: سيروا ذهب الشجرة ، وقال ابن عمر: ما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها ، وكانت رحمة من الله .

وعن نافع قال: بلغ عمر أن ناسا يأتون الشجرة التي بويع تحتها فأمر بها فقطعت وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف .

(فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا) أى فعلم ما فى قلوبهم من الصدق والسمع والطاعة ، فأنزل عليهم الطمأنينة وسكون النفس وورباطة الجأش وأعظام جزاء ما وهبوه من الطاعة — فتح خير عقب انصرافهم من الحديبية كما علمت .

(ومغانم كثيرة يأخذونها) أى وعروضهم فى العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم — فتح خير فأخذوا أموال يهودها وعقارهم وكان كثيرا ، وخصهم بأهل بيعة الرضوان لا يشرّكهم فيه سواهم .

(وكان الله عزيزا حكيما) وكان الله ذا عزة فى انتقامه ممن انتقم من أعدائه ، حكيما فى تدبير أمور خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائه .

وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ  
 أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا  
 مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى  
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ  
 لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ  
 تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ  
 عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ  
 بَصِيرًا (٢٤)

### شرح المفردات

المغانم الكثيرة: ما وعد به المؤمنون إلى يوم القيامة، فعجل لكم هذه: أى مغانم  
 خبير، أيدى الناس: أى أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول منها إلى الحديبية،  
 آية: أى أمانة المؤمنين يعرفون بها: (١) صدق الرسول صلى الله عليه وسلم .  
 (٢) حياطة الله لرسوله وللمؤمنين وحراسته لهم فى مشهدهم ومغيهم . (٣) معرفة  
 المؤمنين الذين سيأتون بعد أن كلاءته تعالى ستمهم أيضا ماداموا على الجادة، الصراط  
 المستقيم: هو الثقة بفضل الله والتوكل عليه فيما تأتون وما تذرُونَ، وأخرى: أى  
 مغانم أخرى هى مغانم فارس والروم، أحاط الله بها: أى أعدها لكم وهى تحت  
 قبضته يظهر عليها من أراد، لولوا الأدبار: أى لانهمزموا، والولى: الحارس الجامى،  
 والنصير: المعين والمساعد، سنة الله: أى سنن سبحانه غلبه أنبيائه سنة قديمة فيمن  
 مضى من الأمم كما قال: «لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي» أيديهم عنكم: أى أيدى كفار

مكة ، وأيديكم عنهم يبطن مكة ، يعني بالحديبية ، أظفركم عليهم : أى أعلى كلمته وجعلكم ذوى غلبة عليهم ، فإن عكرمة بن أبي جهل خرج فى خصامة إلى الحديبية فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد .

### المعنى الجليل

بعد أن وعدم فيما سلف بمغانم خبير — أردف ذلك بيان أن ما آتاهم من الفتح والمغانم ليس هو الثواب وحده ، بل الجزء أمامهم ، وإنما عجل لهم هذه لتكون علامة على صدق رسوله صلى الله عليه وسلم وحياطته له ، وحراسته للمؤمنين وليثبتكم على الإسلام ، ولتزيدكم بصيرة ، وسيؤتيكم مغانم أخرى من فارس والروم وغيرها ما كنتم تقدرون عليها لولا الإسلام ، فقد كانت بلاد العرب شبه مستعمرات لهذه الدول فأقدرهم الله عليها بعز الإسلام .

ثم ذكر أنه لو قاتلكم أهل مكة ولم يصالحوكم لانهمزوا ولم يجدوا ولياً ولا نصيراً يدافع عنهم ، وتلك هى سنة الله من غلبة المؤمنين ، وخذلان الكافرين ، ثم امتن على عباده المؤمنين بأنه كفف أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكفف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلهم عند المسجد الحرام ، فصان كلاً من الفريقين عن الآخر ، وأوجد صلحاً فيه خيرة للمؤمنين ، وعافية لهم فى الدنيا والآخرة .

### الإيضاح

( وعدمكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، ففعل لكم هذه وكفف أيدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطاً مستقيماً ) أى وعدمكم الله مغانم كثيرة من غنائم أهل الشرك إلى يوم القيامة ، ولكن عجل لكم مغانم خبير ، وكفف أيدي

اليهود عن المدينة بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية وخير قاله قتادة واختاره ابن جرير الطبري ، لتشكروه ولتكون أمانة للمؤمنين يعلمون بها أن الله حافظهم وناصرهم على أعدائهم على قلة عدوهم ، وليهديكم صراطا مستقيما بانقيادكم لأمره ، وموافقكم رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويزيدكم يقينا بصلح الحديبية وفتح خيبر .

روى إياس بن سامة قال : حدثني أبي قال : « خرجنا إلى خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل عمى عامر يترجم بالقوم ثم قال :

تالله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا  
ونحن عن فضلك ما استغنينا فثبت الأقدام إن لاقينا  
وأتران سكينه علينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ قال : أنا عامر ، قال : غفرلك ربك (وما استغفر لأحد إلا استشهد) قال : فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له ، يا نبي الله لو أمتعتنا بعامر ، فلما قدمنا خيبر خرج قائدهم مرحب يخطر بسيفه ويقول :

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب  
إذا الحرب أقبلت تلتهب

فبرز له عامر بن عثمان فقال :

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحب في ثرس عامر ، فرجع سيف عامر على نفسه ، فقطع أكله (الأكل : عرق في اليد) فكانت فيها نفسه ، قال فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي فقلت يا رسول الله بطل عمل عامر ، فقال من قال ذلك ؟ قلت ناس من أصحابك ، قال من قال ذلك ؟ بل له أجره مرتين ، ثم أرسلني إلى

على وهو أرمد وقال لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ،  
فأتيت علياً فبئت به أقوده وهو أرمد حتى أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم  
فتقل في عينيه فبرئ وأعطاه الراية فخرج مرحب وقال :

أنا الذي سميتى أمى مرحب      شاكى السلاح بطل مجرب  
فقال على " كرم الله وجهه :

أنا الذي سميتى أمى حيدر      كليث غابات كربه المنظرة  
أكيلكم بالسيف      كيل السنذرة<sup>(١)</sup>

قال : فضرب رأس مرحب فقتله ، ثم كان الفتح على يديه .

( وأخرى لم تقدرُوا عليها قد أحاط الله بها ) أى ووعدكم الله فتح بلاد أخرى  
لم تقدرُوا عليها ، قد حفظها لكم حتى تفتحوها ، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها  
كفارس والروم ، فقد أقدركم عليهم بجز الإسلام وقد كنتم قبل ذلك مستضعفين  
أمامهم لاتستطيعون دفعهم عن أنفسكم .

( وكان الله على كل شىء قديراً ) أى وكان الله على كل ما يشاء من الأشياء  
ذا قدرة لاتعذر عليه شىء .

( ولو قاتلكم الذين كفروا لوثوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً ) يقول  
سبحانه مبشراً عباده المؤمنين بأنه لو تاجزهم المشركون انصرم عليهم ولا نهزم جيش  
الكفر فاراً مُدبراً لايجد ولياً يتولى رعايته ويكلؤه ويحرسه ، ولا نصيراً يساعده ،  
لأنه محارب لله ورسوله ولجزبه المؤمنين .

( سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ) أى هذه هى سنة  
الله فى خلقه ، ماتقابل الكفر والإيمان فى موطن فيصَل إلا نصر الله المؤمنين على

(١) السنذرة : مكبال واسع ، وكيلهم بها قتلهم قتلا واسعا ذريعا .

الكافرين ، ورفع الحق ووضع الباطل كما نصر يوم بدر أوليائه المؤمنين على قلة عددهم وعددهم ، وكثرة المشركين وكثرة عددهم .

( وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة بعد أن أظفركم عليهم )  
 أى إن الله كف أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية يلتمسون عزيمتهم ليصيبوا منهم ، فبعث رسول الله سرية فأتى بهم أسرى ، ثم خلى سبيلهم ولم يقتلهم منه وفضلا .

روى أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والنسائي فى آخرين عن أنس قال : « لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح من جبل التنعيم ( التنعيم : موضع بين مكة وسرف ) فدعا عليهم فأخذوا فمعا عنهم فنزلت هذه الآية : ( وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ ) » الخ .

وروى أحمد عن عبد الله بن مفضل المزني رضى الله عنهما قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصل الشجرة التى قال الله فى القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان على بن أبي طالب وسهيل ابن عمرو بين يديه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه — اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فأخذ سهيل بيده وقال : ما نعرف الرحمن الرحيم ، اكتب فى قضيتنا ما نعرف . قال اكتب باسمك اللهم — وكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة ، فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسول الله ، اكتب فى قضيتنا ما نعرف ، فقال اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل جئتم فى عهد أحد ؟ وهل جعل لكم أحد أمانا ؟

فقالوا لا ، نَقَلَى سَبِيلَهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ( وهو الذى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَبْعِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ) « الآية .

( وكان الله بما تعملون بصيرا ) أى وكان الله بأعمالكم وأعمالهم بصيرا لا يخفى عليه شئ منها ، وهو مجازيكم ومجازيهم بها .

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا  
 أَنْ يَبْلُغَ حَجَّهٖ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَلِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ  
 تَطَّوُّوهُمْ فَتَصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ  
 يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ  
 عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا  
 وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) .

### شرح المفردات

الهدى : ما يقدم قربانا لله حين أداء مناسك الحج أو العمرة ، معكوبا : أى محبوسا ؛ يقال عكفت الرجل عن حاجته : إذا حبسته عنها ، محله : أى المكان الذى يسوغ فيه نحره وهو منى ، والوطء : الدوس ، والمراد به الإهلاك ، وفى الحديث « اللهم اشدد وطأتك على مضر » ، والمعرة : المكروه والمشقة ، من عره إذا عراه ودهاه بما يكره والتزيل : التفرق والتميز ، والحميّة : الألفة ، يقال حميت من كذا حمية إذا أنفت منه وداخلك منه عار ، والمراد بها ثوران القوة الغضبية ، وحمية الجاهلية : حمية فى غير

موضعا لا يؤيدها دليل ولا برهان ، وكلمة التقوى هي : لا إله إلا الله ، وأهلها : أى المستأهين لها .

### المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف أن الله كف أيدى المؤمنين عن الكافرين ، وكف أيدى الكافرين عن المؤمنين — عين هنا مكان الكف وهو البيت الحرام الذى صدوا المؤمنين عنه ومنعوا الهدى معكوبا أن يبلغ محله ، والسبب الذى لأجله كفهم هو كفرهم بالله ، ثم أخبرهم بأنه لولا أن يقتلوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لاعلم لهم بهم فيلزمهم العار والإثم — لأذن لهم فى دخول مكة ، واتقد كان الكف ومنع التعذيب عن أهل مكة ليُدخل الله فى دين الإسلام من يشاء منهم بعد الصلح وقيل دخولها ، ولينمقن الأذى عن المؤمنين منهم ، ولو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض نعدبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما بالقتل والسبي حين جعلوا فى قلوبهم أنفة الجاهلية التى تمنع من الإذعان للحق ، ولكن أنزل الله الثبات والوقار على رسوله وعلى المؤمنين فامتنعوا أن يبطشوا بهم ، وألزمهم الوفاء بالمهد وكانوا أحق بذلك من غيرهم إذ اختارهم الله لدينه وصحبه نبيه .

روى أنه لما تم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلهم بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع فى عامه على أن تحلّى قریش مكة من العام القابل ثلاثة أيام فأجابهم وكتبوا بينهم كتابا، فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقالوا: لا نعرف هذا: اكتب باسمك الله، ثم قال عليه السلام: اكتب هذا ماصالح عليه رسول الله أهل مكة، فقالوا لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت وما قاتلناك، اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة، فقال صلى الله عليه وسلم اكتب ما يريدون،

فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك وأن يبسطوا بهم ، فأنزل الله السكينة عليهم فتوقروا واحتملوا كل هذا ، وقد تقدم ذلك برواية أخرى .

## الإيضاح

( هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوبا أن يبلغ محله )  
 أى هم الذين جحدوا توحيد الله وصدوكم أيها المؤمنون بالله عن دخول المسجد الحرام وصدوا الهدى محبوسا أن يبلغ محل نحره وهو الحزم عنادا منهم وبغيا ، وكان رسول الله ساق معه حين خرج إلى مكة في سفرته تلك سبعين بدنة .

( ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ) أى ونولا هؤلاء الذين يكتمون إيمانهم خيفة على أنفسهم - بين أظهرهم - لسلطانكم عليهم فقتلتموهم وأبذتم خضراءهم ، ولكن بين أفتانهم من المؤمنين والمؤمنات من لا تعرفونهم حين القتل ، ولو قتلتموهم للحقتكم المعرة والمشقة ، بما يلزمكم في قتالهم من كفارة وعيب .

والخلاصة - إنه لولا وجود مؤمنين مختلطين بالمشركين غير متميزين منهم - لوقع ما كان جزاءهم لصدحهم وكفرهم ، ولو حصل ذلك لزمكم العيب ؛ إذ يقول المشركون إن المسلمين قتلوا أهل دينهم .

( ليدخل الله في رحمته من يشاء ) أى وقد حال بينكم وبين قتالهم لدخول مكة . إخراج المؤمنين من بين أظهرهم ، وليدخل في دينه من يشاء منهم قبل أن تدخلوها .

عن أبي جمعة جنيد بن سبيع قال : « قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم أول النهار كافرا وقاتلت معه آخر النهار مسلما ، وفينا نزلت : ولولا رجال الح . وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين » ، وفي رواية ابن أبي حاتم « كنا ثلاثة رجال وأسمع نسوة » أخرجه الطبراني وأبو يعلى وابن مردويه .

(لو تزيلوا لعذبتنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) أى لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم لسלטناكم عليهم فقتلتموهم قتلا ذريعا .

ولما بين شرط استحقاقهم للعذاب بين وقته فقال :

(إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الجمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) أى لعذبتناهم حين جعلوا في قلوبهم أنفة الجاهلية ، فامتنع سهيل بن عمرو أن يكتب في كتاب الصلح الذى بين رسول الله والمشركون (بسم الله الرحمن الرحيم) وأن يكتب فيه (محمد رسول الله) وامتنع هو وقومه أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عامه هذا المسجد الحرام ، فأنزل الله الصبر والطمأنينة على رسوله ففهم عن الله مراده وجرى على ما يرضيه ، وأنزله على المؤمنين فألزمهم أسرهم وقبيلوه ، وحمام من همزات الشياطين وألزمهم كلمة التوحيد والإخلاص لله فى العمل ، وكانوا أحق بها ، وكانوا أهلها ، إذ هم أهل الخير والصلاح .

(وكان الله بكل شىء عليما) سواء أكان من المؤمنين أم من الكفار فيجازى

كلا بما عمل .

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ  
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ  
 تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ  
 رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ  
 شَهِيدًا (٢٨) .

## شرح المفردات

الرؤيا : هي رؤيا منام وحُلم ، وصدق الله رسوله الرؤيا : أى صدقه في رؤياه ولم يكذبه ، محلقين رموسكم ومقصرين : أى يخلق بعضهم ويقصر بعض آخر بإزالة بعض الشعر ، ليظهره على الدين كله : أى ليعليه على سائر الأديان : حَقَّها وباطلها ، وأصل الإظهار : جعل الشيء باديا ظاهرا للرأى ثم شاع استعماله في الإعلاء .

## المعنى الجملى

رأى عليه الصلاة والسلام في المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه ، آمنين منهم من يخلق ومنهم من يقصر ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم هذا ، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شق ذلك عليهم ، وقال المنافقون : أين رؤياه التي رآها ؟ فأنزله الله هذه الآية ودخلوا في العام المقبل .

ومما روى « أن عمر بن الخطاب قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : أأنت نبي الله حقا ؟ قال بلى ، قلت فلم تعطى الدنيا في ديننا إذن ؟ قال إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى ، قلت : أولست كنت تحدثنا أناسنا في البيت وتطوف به ؟ قال فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر : أليس هذا نبي الله حقا ؟ قال بلى ، قلت أألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت فلم تعطى الدنيا في ديننا ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره ، فاستمسك بفرزه ( سر على نهجه ) فوالله إنه لعلى الحق ، قلت : أليس كان يحدثنا أنه سيأتى البيت ويطوف به ؟ قال بلى . قال فأخبرك أنه آتية العام ؟ قلت لا ، قال فإنك تأتية وتطوف به . »

## الإيضاح

( لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فلم مالم تملوا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا )  
 أى لقد صدق الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم رؤياه التى أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه البيت الحرام آمنين لا يخافون أهل الشرك ، محلقاً بعضهم ومقصرًا بعضهم الآخر ، فلم جل ثناؤه مالم تملوا ، وذلك هو علمه تعالى بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين الذين لم يعلمهم المؤمنون ، ولو دخلوها هذا العام لوطئوهم بالخليل والرجل فأصابتهم منهم معرفة بغير علم ، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك ، فجعل من دون دخولهم المسجد فتحا قريبا هو صلح الخديبية وفتح خيبر ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر اليوم الموعود .

ثم أكد صدق الرسول فى الرؤيا بقوله :

( هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ) أى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ، ليبطل به الملل كلها بنسخ سائر الديانات ، وإظهار فساد العقائد الزائفات ، حتى لا يكون دين سواه .  
 ولما كان هذا وعدا لا بد من تحققه أعقبه بقوله :

( وكفى بالله شهيدا ) على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان كأمن لا محالة .

وفى هذا تسلية له عما وقع من سهيل بن عمرو ، إذ لم يرض بكتابة « محمد رسول الله » وقال ما قال .

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا مَسْجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَمْرِ

السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩).

## شرح المفردات

أشداء : واحد شديد ، رجاء : واحد رحيم ، فضلا : أى ثوابا ، والسياء والسيما من السومة (بالضم) وهى العلامة كما قال :

غلام رماه الله بالحسن يافعا له سيمياء لانتشق على البصر

مثلمهم : أى وصفهم العجيب الجارى مجرى الأمثال فى الغرابة ، والشطء : فروخ الزرع ، وهو ماخرج منه ، وتفرع فى شاطئيه : أى جانبيه وجمعه أشطاء ، وشطأ الزرع وأشطأ : إذا أخرج فراخه ، وهوى الخنطة والشعير والنخل وغيرها ، وآزره : أعانه وقواه وأصله من المؤازرة وهى المعاونة ، واستوى على سوقه : أى استقام على قصبه وأصوله ، والسوق ، واحدها ساق .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه أرسل رسونه بالهدى ودين الإسلام ، ليعلى شأنه على سائر الأديان — أردف هذا ببيان حال الرسول والمرسل إليهم ، فوصفهم بأوصاف كلها مذايح لهم ، وذكرى لمن بعدهم ، وبها سادوا الأمم وامتلكوا الدول وقبضوا على ناصية العالم أجمع ، وهى :

(١) إنهم غلاظ على من خالف دينهم وناوأم العدا ، رجاء فيما بينهم .

(٢) إنهم جعلوا الصلاة والإخلاص لله دينهم فى أكثر أوقاتهم .

(٣) إنهم يرجون بعملهم الثواب من ربهم والزلفى إليه ورضاه عنهم .

(٤) إنهم لهم سيمى يعرفون بها ، فلهم نورى وجوههم ، وخشوع وخضوع يعرفه أولو الفطن :

(٥) إن الإنجيل ضرب بشأنهم المثل فقال : سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر .

ذاك أنهم فى بدء الإسلام كانوا قليلى العدد ثم كثروا واستحكوا وترقى أمرهم يوما فيوما حتى أعجب الناس بهم ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قام وحده ثم قواه الله بن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها .

## الإيضاح

(محمد رسول الله) أى إن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله بلاشك ولا ريب مها أنكر المنكرون ، وافترى الجاحدون .

(والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) أى إن صحابته الذين معه غليظة قلوبهم على الكفار ، رقيقة قلوب بعضهم على بعض ، لينة أنفسهم لهم ، هينة عليهم .

ونحو الآية قوله : « فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ » وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » وفى الحديث « مثل المؤمنین فى توادم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الأعضاء بالحلمى والسهر » وقوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وشبك بين أصابعه » وعلى هذا جاء قوله :

حليم إذا ما الحلم زين أهله على أنه عند العدو مهيب

(تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً) أى تراهم دائبين على الصلاة مخلصين لله محسبين فيها الأجر وجزيل الثواب عنده طالبين رضاه عنهم « وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » .

(سيامهم في وجوههم من أثر السجود) أى لهم سميت حسن وخشوع وخضوع يظهر أثره في الوجوه ، ومن ثم قيل : إن للحسنة نوراً في القلب ، وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس . وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : ما أمرت أحد سريرة إلا أبداه الله تعالى على صفحات وجهه ، وفتتات لسانه .

والخلاصة — إن كل ما يفعله المرء أو يتصوره يظهر على صفحات الوجه ، فالؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله عز وجل ظاهره للناس .

روى عن عمر أنه قال : من أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، وعن أبي سعيد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كأننا ما كان » .

ثم أخبر سبحانه أنه نوّه بفضلهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة فقال : (ذلك مثلهم في التوراة) أى هذه الصفة التي وصفت لكم من صفات أتباع محمد صلى الله عليه وسلم هي صفتهم في التوراة .

(ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع) أى إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يكونون قليلين ثم يزدادون ويكثرُونَ ويستغلظون كزرع أخرج فراخه التي تنفرع على جانبيه كما يشاهد في الحنطة والشعير وغيرهما ، فيقوى ويتحول من الدقة إلى الغلظ ، ويستقيم على أصوله ، فيعجب به الزراع لقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره .

والخلاصة — إن هذا مثل ضربه الله لبدء الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوى واستحكم وأعجب الناس .

روى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أرحم أمتي أبو بكر ، وأشدهم في أمر الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم علي ، وأقرؤهم أبي ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأكمل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .  
ثم بين أنه إنما جعلهم كذلك .

(ليغيظ بهم الكفار) أى إنه تعالى نمام وأكثر عددهم ليغيظ بهم الكفار ، إذ يعتقدون أن الله متم بهم نوره ولو أبى الجاحدون .

[تنبيه] هذه أوصاف الأمة الإسلامية أيام عزها ، فانظر الآن وتأمل في نخاذلها وجهلها حتى أصبحت مثلاً في الخمول والجهل ، وأصبحت زرعاً هشياً تذروه الرياح ، فكيف يجتمع عصفه وتبته ؟

ولعل الله يبدل الحال غير الحال ويخضر الزرع بعد ذبوله ، وتعود الأمة سيرتها الأولى مهيبة مرعية الجانب مخشية القوة .

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً) أى وعد سبحانه هؤلاء الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يغفر ذنوبهم ويجزل أجرهم بإدخالهم جنات النعيم ، ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل .

وكل من اقتنى أثر الصحابة فهو في حكمهم ، ولهم السبق والفضل والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد .

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا أصحابي ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه » رضى الله عنهم وأرضاهم .

[خاتمة] هذه السورة آخر القسم الأول من القرآن الكريم وهو المطول ، وسيأتى القسم الثانى ، وهو المفصل .

## خلاصة مقاصد هذه السورة

- (١) بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بالفتح وإعزاز دين الله .
- (٢) وعد المؤمنين ووعيد الكافرين والمنافقين .
- (٣) ذم المخلفين من عرب أسلم وجهينة ومزينة وغفار .
- (٤) رضوان الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، ووعدهم بإمام بالنصر في الدنيا ، وبالجنة في الآخرة .
- (٥) البشرى بتحقق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين وقد تم لهم ذلك في العام المقبل .
- (٦) وصف النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه بالرحمة والشفقة .
- (٧) وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والأجر العظيم .